جفاء الطبيعة

الشمس تنزل في الغروب ، وقد تورّد خدُّها
لتقبّل الأفقَ البعيدَ ، وقد تسعّر وجدُها
تخفي الاسى خلف النخيـل
مثل ابتسامات العليـل
حتى اذا احتجبت تماماً خلف استار الأفق
وتراكضت زُمَرُ النهار ، وأسرعت زُمَرُ الشفق
نزل المساء بجحفله
وجرى الظلام بخيله
حطّت عليَّ كآبةٌ : كالنسر حطّ وقد وهَى
لم أدرِ كيف تسلّلت للنفس مدّت ظلّها
أمن المساء ولونه
يحكي الضليل بحزنه
أم من أفانين الحياة ؟ وآهٍ من تفكيرها !
دَوْماً تساورها الشكوك ... فآهٍ من أسيرها !
تدع النفوس على الثرى
من بعد مرتفع الذرى
لابدَّ أن وراءها سرًّا وانّي أرهبُ
ماذا تريد كآبتي ؟ ماذا تُسِرُّ وتحجبُ ؟
النجم يبدو ساهيا
هلاَّ يحس بما بيا !؟
وتبعثرتْ بعضُ النجوم كما تبعثرت الفِكَرْ
يلهو بها عَدَمُ القرار كأنها بعض الشررْ
نثرته انفاس الهواء
فطار من دون اهتداء
أوَلستُ من هذي الطبيعة بعضها كالنجم منها !؟
فلعلَّ اشجان النجوم تلفتها النفسُ عنها
فاذا مضى شجن النجوم
تسري عن النفس الهموم!

وأتتْ على وجه الهلال سحابةٌ حجبت سناهُ
فشعرتُ أن كآبتي في القلب هدَّت من قُواهُ
فلعل ان مضت السحابة
تمضي عن النفس الكآبة

وجلستُ أدعو ذكرياتي من مراقدها الهنيَّة
كيما تطارد ما أحسَّ به من الرُّهَب القويَّة
لكنها بعدت كما
بعد الخيال الى الخيال

وشعرتُ أني قد فُصِلتُ عن الطبيعة وانفردتْ
فزهتْ أساورُ النجوم وحدَّثت من بعد صَمْتِ
تلك الربوعَ بنورها
فسمت بلاغة نورها

وزها الهلالُ. وكنتُ أحسبهُ سيطوي بين يأسِ
وجَدَتْ مباهجَها الطبيعةُ بعد فقدٍ، ما لنفسي!
فقدت مباهجها ولما تهتد
لا اليوم يكشفها ولا قلب الغد

فهل الطبيعة لا تحسُّ بما تحسُّ، وشقنا تأسى لها
أم أنها عافت مصاحبة الأناسي في الحياة؟ وما لها!
قد انكرتني بعد ما
تركتني ارتشف اللمى

تركتني أرتشف اللمى حتى سكرتُ من الرضاب
هل كان ذاك حقيقةً، أم كان أُخيلةَ السراب
فانا الحزين من البداءة للازل
حتى الطبيعة ينطوي فيها الامل

فتملَّكي ما شئتِ أيتها الكآبةُ من فؤادي
ما دام حتى الأمّ تمنعُ في التجافي والبعادِ
فالطفل قد فقد الحنانَ
بين الطبيعة والزمانْ

حسن كامل الصيرفي

بيدرو في بلاط الامبراطورة كاترين ثانية الروسية